إلى أَطفالِ غَزَّةَ ... سَلاماً

مقاربات تربوية وأنشطة تطبيقية

ليانا جابر

العدوان على غزة . . . حدثٌ جلل، وجريمة تعجز كل أدوات التعبير عن وصفها، جريمة آلامها تفوق ما يتحمله أي إنسان، اثنان وعشرون يوماً كتبت بلغة الطائرات والدبابات، فصولها قتلٌ، ودمار، ودماء، في كل مكان أشلاءٌ تتناثر وأجساد تحرق، إنها لغة النار، الأطفال يرون كل ذلك ويعيشونه، أحباؤهم يموتون أمام أعينهم، آخرون يرتعدون من صوت الصواريخ، يتخيلون سقوطها على أسقفهم في أي لحظة، أمهات لا تقوى على حماية أطفالها، أناس تصرخ، ولكن أنَّى لها أن تسمع وسط قعقعة الحرب وضجيج الساسة. كثيرون قُدّمت أرواحهم قرابين لآلهة العدوان علّها تفدي من تبقى، ولكن دون جدوى. آخرون فقدوا أجزاء من حياتهم أو من أجسادهم، فقدوا أرجلاً أو أيدي، أو أعيناً، فقدوا أمنهم، أصبحوا جرحى أو يتامى أو مذعورين، بل مضطربين نفسياً أيضاً . . . لكن على الرغم من كل آلات الحرب الوحشية، بقيت لهذا الشعب إرادته وعزيمته على الاستمرار.

وماذا عمن هم خارج غزة؟ هم في الجبهة الأخرى تحت قصف الفضائيات وتحت طائلة التعذيب بجرعات مرئية مكثفة من صور هذا الدمار، لا يملكون سوى مراقبة عداد الجرحى والشهداء يتصاعد باطّراد، مشاهد تبعثر الأشلاء وتناثر الشظايا، شعور بالعجز والألم يفوق انجياش الأحاسيس وانهمار الدمع، حدثٌ ينبش في الذاكرة فيفتح ما فيها من جروح قديمة لذكريات قانا، وصبرا وشاتيلا، وحرب لبنان، . . . ويعود بها وراءً لتاريخ النكبة وروايات أجدادنا لمآسي ومجازر اقترفها العدو، صور تعرض على شاشة التلفاز تتصادى مع صور تشبهها من عمق الذاكرة.

توقف القصف، وخرج الناس من البيوت أو أشباه البيوت، رأوا الدمار وتجرعوا حسرات الفقدان، فقدان الأب والأم والأخ والقريب، فقدان مشهد البيوت والشوارع التي ألفوها، أصبح حاضرهم ماضياً، وباتوا يتخبطون بين أطلال تشهد احتضار ذكريات تلتقط أنفاسها الأخيرة وتنتظر من يأخذ منها شاهداً يتمثل في قميص هنا، أو صورة هناك. أصبح المشهد الآن أكثر وضوحاً بعد انقشاعَ الدخان، مشهدٌ يترامى في حدود ثالوث مؤلم، رأسه الأول يدور حول ما يجري من مجازر تقترف بحق أهل القطاع، والثاني يحوم حول الآخرين خارج غزة الذين يعانون، ولكن بطريقة أخرى ليست دامية في الجسد، ولكنها دامية في الروح، والثالث يعيد الاثنين من داخل غزة وخارجها إلى الوراء، ليتغلغل في الحدث والذكرى؛ حدثٌ يتجدد ولكن الذاكرة واحدة.

والأطفال، أين هم من هذه المعادلة؟ كيف يمكن لهم أن يتجاوزوا ما حدث؟ كيف سيخطون خطواتهم الأولى في طريق ما بعد الحدث؟ . . . عادوا إلى مدارسهم، ولكن أي مدارس؟ تلك التي لعبت دور الملجأ أثناء الحرب، بل ولم تجد أن تلعبه، فقد قُصفت ودمُرت واحترقت وقتل فيها من قتل؟ أم تلك التي يجلس الطلاب على أطلالها يستحضرون ما كان من صفوف وجدران، ويمارسون طقوس التعليم تحت لعنة الدمار وأشباح الحرب، متظاهرين أنهم بدأوا الفصل الدراسي الثاني!

يوصي الخبراء النفسيون بمحاولة الرجوع إلى الروتين حتى يسترجع الطفل المصدوم أمنه المفقود، وفي ذلك وجهة نظر! ولكن سيجدي هذا المقترح نفعاً ضمن واقعية الحدث وهوله؟ سؤال لن يجيب عنه سوى أطفال غزة أنفسهم. كيف يمكن وفي فترة لم تطأ أعتاب الشهر أن يعاني فيها الشعب من شتى أطياف الألم والمآسي، ثم يعود أطفالنا إلى المدارس أو إلى أشباه المدارس أو أشباح المدارس؟ . . . واقعٌ يضع المعلم والمجتمع التربوي بأسره أمام مهمة صعبة وتحدٍ كبير. معلم هو نفسه يعاني من الصدمة والألم، فإذ به يضمد جروح طلابه. معطيات استثنائية تتطلب تدخلاً استثنائياً.

إن من يطلع على أساسيات التعامل مع الأطفال في أطر حدثية مختلفة؛ أحداث الحادي عشر من أيلول في الولايات المتحدة، وأحداث العراق (من وجهة نظر الأمريكان وكيف يتعاملون مع أطفالهم الذين يشاهدون مشاهد «عنيفة» على شاشات التلفاز، أو الذين بُعث آباؤهم للحرب هناك)، كوارث طبيعية . . . يتجرع الكثير من الرسائل المستفزة. أغلب الإرشادات تقع في خانة: جنِّب الطفل رؤية الأحداث المعروضة على التلفاز، أشعره أن هناك وجهات نظر مختلفة في النزاعات، أشعره أن الشيء الحاصل ليس بالضرورة أن يحصل لك. ولكن هل هذه الإرشادات ما يلائم طفلنا الفلسطيني الذي عاش ثلاثة أسابيع توجت سنوات من القسوة والحرمان فيها أقصى مظاهر الحزن والألم والصدمة والفقدان؟ هل هي الرسالة التي يجب أن نوجهها لأطفال فلسطين خارج غزة ولأطفال العرب الذين يتعلمون تحت مظلة القومية العربية؟ أعتقد أن سؤالنا وجل تفكيرنا الآن يجب أن يوجه نحو البحث في كيفية إعادة التوازن لهذا الطفل؟ وإدخال السلام إلى قلبه؟ والتهدئة من روعه؟ كل ما نريده هو أن نعطي للأطفال طفولتهم، رأيناهم على شاشات التلفاز يروون الأحداث كأنهم كبار أو بلغة الكبار، حتى الإيماءات والنظرات

والخلجات . . . قُدّمت ساعة الزمن عندهم لسنوات، أصبحوا كباراً في أجساد أطفال.

في ظل هذه الأزمة، تدفقت الإرشادات للتعامل مع الأطفال في الأزمات في كتيبات وعلى الصفحات الإلكترونية وفي الجرائد من قبل الأخصائيين النفسانيين والخبراء في هذا المجال. ومن هذا المنطلق، لم أجد ضرورة للتفصيل في الجانب الإرشادي حول كيفية تعامل المعلم مع الطلاب في الظروف الصعبة والأزمات التي يمرون بها من تداعيات العدوان على غزة، على الرغم من أهمية هذا الجانب، وضرورة إطلاع المعلم عليه وامتلاك المهارات اللازمة للتعامل مع طلابه ضمن هذه الظروف غير العادية. ولكن ثمة عناوين بارزة تحت هذا العنوان قد يكون من المفيد الإشارة إليها، أذكر منها:

ضرورة إعطاء الطالب فرصة التعبير عن مشاعره

إن مرور الطفل بأزمة يغلب عليها عنصر المفاجأة، وإصابته أو من حوله جسدياً وفقدانه للمقربين له أو لبيته وشعوره بالتهديد وفقدان حياته والخوف من تكراره، يولد عند الطفل ردود فعل عاطفية تتباين من طفل إلى آخر تبعاً للمرحلة العمرية وللنواحي الشخصية، وتبعاً لطبيعة الحدث الخاص الذي مرّ به أثناء أزمة الحرب وخبراته السابقة في هذا الإطار، وأساليب التعامل معه، ومن أهم المشاعر التي تبرز لدى الأطفال:[1]

الخوف: نتيجة للأزمة التي يتعرض لها الطفل تبقى الصورة ماثلة في ذاكرته، وتتولد لديه مشاعر مؤلمة كلما استرجع هذه الصورة، كما تنشأ لديه حالة من القلق من احتمال تكرار ما حصل مرة أخرى، وقد يرافق ذلك كوابيس أثناء النوم، والتوتر عند مشاهدة هذه المشاهد تبث على شاشات التلفاز. لذا، على المحيط أن يساعد الطفل على التعبير عن مشاعر الخوف لديه، إذ أن الكلام عن هذه المشاعر يجعلها أقل رعباً، كما أن إشعار الطفل بالتعاطف معه والعمل على حمايته يخفف من الشعور بالخوف.

الغضب: من الشائع أن يفرغ الطفل غضبه تجاه الأهالي أو الزملاء والجيران، لأنهم لا يستطيعون تفريغه تجاه المعتدي. في هذه الحالة، يجب إعطاء الطفل فرصة ليهدأ قبل البدء بالحديث عن أسباب غضبه، كما يجب عدم الرد على صراخه وغضبه بالمثل، بل إظهار نوع من التعاطف معه من خلال عبارات مثل «أنا أفهم ما تشعر به الآن»، والاستفسار عن سبب غضبه؛ مثل «هل تحب أن تخبرني عما يزعجك؟»، مع مراعاة عدم الإلحاح بالتحدث مثل: «إذا كنت لا ترغب في الحديث الآن، فأنا على استعداد أن أسمعك وأتحدث معك عندما تريد». يمكن التعامل مع هذه الظاهرة مع الأطفال في جيل 3- 5 سنوات من خلال القصص وتفريغ طاقاتهم في نشاطات أخرى كالرسم، واللعب بالملتينا. أما من هم أكبر سناً، فيمكن الحديث عن الوضع السياسي والنقاش، وإسناد مسؤوليات وأنشطة مدرسية لهم.

فقدان الشعور بالسيطرة: نتيجة للحدث الذي أفقد الطفل نمط حياته المألوف وبرنامجه الاعتيادي وغير الواقع من حوله، يشعر الطفل بحالة من عدم القدرة على السيطرة على حياته وبالضياع، لذا على المحيط أن يحاول إعادته قدر الإمكان إلى نوع من روتينه المعتاد حتى يعود له شعوره بالسيطرة ولو تدريجياً، وتوفير فرص التأثير عند الطفل كانخراط الطفل بنشاطات مجتمعية، أو كتابة رسائل للمسؤولين، أو التبرع للمجموعات المنكوبة، والتطوع في أعمال مختلفة.

الاكتئاب والعزلة: يتضاءل اشتراك الطفل في النشاطات الخارجية، كاستجابة للأزمات عند الأطفال، بعضهم يظهر اهتماماً أقل باللعب ويتولد لديهم الرغبة بالانعزال كنوع من الهرب من واقع الحدث، أو بسبب الشعور بالغيرة ممن لم يتضرروا بالقدر نفسه، وأحياناً قد يعزل الطفل نفسه عمن يشعر بقلق الانفصال عنهم في محاولة لحماية نفسه من هذه المشاعر. وفي هذه الحالة، على المحيط محاولة دمج هذا الطفل في المحيط، وإعادته إلى طبيعته السابقة، مع الحرص على عدم الضغط عليه بصورة تضايقه.

غالباً ما يعبر الأطفال عن مشاعرهم من خلال اللعب؛ اللعب بالبنادق وأسلحة الحرب، الأمر الذي يعطيهم شعوراً بالقدرة ويعوض عن شعورهم بالخوف، لذا ينصح عدم منع الأطفال من هذا النوع ما لم يعرضوا أنفسهم للأذى، والتدخل في لعبتهم ببعض الأسئلة لتساعد الأطفال أنفسهم على التعبير عما بداخلهم؛ كسؤالهم كيف هو الشعور وأنت معك السلاح؟ وكيف هو الشعور وأنت الضحية؟ أو كيف يمكن حل المشكلة دون أسلحة؟ ومن ثم محاولة جذبه تدريجياً إلى أنشطة أخرى ذات طابع أكثر هدوءاً.

الطرق الأخرى التي تعتبر متنفساً للطفل هي الرسم، لذا يجب إعطاء الطفل فرصة للرسم والتعبير عن الحدث. وفي حالة كانت الرسومات عنيفة، أفضل ما يمكن عمله هو أن نجعل الأطفال يتحدثون عن رسوماتهم. بعض الأطفال يرتاحون أكثر في التعبير من خلال الكتابة؛ كتابة المذكرات، والقصص، والشعر.[2]

مفهوم الفقد والموت وتفهم الحزن عند الأطفال

كما هي الحال عند جميع البشر، يتأثر الأطفال بوفاة أحد الأقارب أو الأصدقاء، وتختلف مظاهر التأثر من طفل إلى آخر، فتظهر مظاهر الحزن والكآبة والشعور بالذنب، أو حتى تجاهل الحدث وإنكاره. إن مفهوم الموت عند الطفل يختلف تبعاً للمرحلة العمرية وتبعاً للخبرات السابقة حول حقيقة الموت التي مر بها الطفل، فالأطفال في عمر 3-6 سنوات لا يدركون مفهوم الموت في هذا العمر، فيعتبرون الموت مجرد فراق، ويظنون أنه أمر يمكن إلغاؤه فيتوقعون رجوع الميت. وبعد وفاة أحد الوالدين يشعرون بالخوف من أن يفقدوا الوالد الآخر، أو أحد أفراد العائلة، وقد يتوقعون أن يصلهم الموت. إن الطفل في هذه المرحلة العمرية لا يميز الحقيقة من الحلم، فقد يرى الطفل أخاه أو أباه ميتاً في الحلم، ولكنه يراه حياً في الصباح التالي، كما أن تجربة الطفل المليئة بالأحداث الخيالية، ومشاهدة الصور المتحركة التي تظهر الشخص ميتاً ثم حياً تزيد من اللبس عندهم. إن محدودية إدراكهم لا يجعلهم قادرين على استيعاب المفهوم كاملاً. ومع نمو الطفل يدرك تدريجياً (عمر 7-12) معنى الموت، ويعرف أن الميت لن يعود، وتتطور لديه القدرة على التخيل لمعالجة الحوادث المؤلمة التي تمكنه من التغلب على

الشعور بالعجز، ولكنها تجعله عرضة للشعور بالذنب. أما الأطفال المراهقون (من عمر 13–16) فيكونون أكثر عرضة للألم والأذى، وأكثر واقعية من ذي قبل، ولكنهم بحاجة للمساعدة كي يستطيعوا التعبير عن مشاعرهم، وبخاصة في ظل ثقافة مجتمعية تدعو إلى كبت المشاعر وإظهار الفخر والقوة والصمود.[3]

يمر الشخص في هذا الإطار بمراحل عدة، أولاها الشعور بالصدمة ثم الغضب ثم المساومة ومن ثم الدخول في حالة من اليأس والكآبة. ويفترض أن ينتهي بمرحلة القبول والفهم والتوصل إلى تسوية داخلية.[4] إن من يفقد عزيزاً قد يمر في هذه الدورة كاملةً، أو قد يمر بمرحلة قبل أخرى، أو قد يبقى في مكانه عند مرحلة ما لا يستطيع تخطيها، لذا من الضرورة أن يحدث تدخل خارجي مدروس يساعده على الوصول نهايةً إلى حالة من السلام الداخلي والتصالح مع الذات.

من الضروري تكثيف التعاون بين البيت والمدرسة ضمن هذا الوضع، ففي حالة ملاحظة المعلم لخلل ما في وضعية الطالب النفسية، عليه التوجه إلى الأهل لفهم أعمق للمشكلة وللتعاون معهم على حلها، كما أن على الأهل أن يبادروا إلى وضع المدرسة في صورة الظرف الخاص الذي يمر به. قد لا يكون الظرف «خاصاً جداً»، فالمآسي هنا كثيرة وأصبحت عادية ضمن سياقها العام في غزة، ولكن تفاعل الأفراد معها يختلف من فردٍ إلى آخر، وهذا يجب أخذه أيضاً بالحسبان.

مقترح تطبيقي لفعاليات مدرسية

فيما يلي مجموعة من الفعاليات التي تتمحور في المجال الوجداني وتهدف في مجملها إلى مساعدة الطالب على التعبير عن مشاعره المكبوتة التي تولدت عنده أثناء العدوان على غزة من خوف، ورعب، وشعور بالعجز والحزن والفقدان والغضب والإنكار، واليأس والإحباط والقلق والخوف من المستقبل وغيرها. كما تحاول هذه الفعاليات أن تبعث بصيصاً من الأمل في غدٍ أفضل وظروف أحسن، وإعطاء شعور بالفعالية والقدرة على التأثير، وتنمية مهارة التعاطف والتقمص العاطفي عند الأطفال، وتهيئة الفرصة للشعور بجمالية العلاقات الطيبة بين الناس على الرغم من وحشية الأحداث وقسوتها، والتعبير عن مشاعر التقدير لمن ساعدهم.

لم تركز هذه الفعاليات على الجانب الأكاديمي بالدرجة الأولى، إذ أن الأولوية الأولى هنا تتركز في امتصاص الشعور بالصدمة والقدرة على تجاوز هذه الفترة العصيبة. ولكن هي أيضاً خبرة تعلمية مغايرة، تخرج عن نطاق الكتاب المدرسي، وتعلم التعبير، والكتابة، والشعر، والتخطيط، والعرض، وما إلى ذلك من معارف ومهارات.

هذه الفعاليات قد تتقاطع وتتشابه في بعض الجوانب، لذا باستطاعة المعلم أن يأخذ منها ما شاء ويعدلها كيفما أراد، هي ليست وصفات جاهزة، وإنما هي إضاءات من هنا وهناك. باستطاعة المعلم أن يلائمها لطلابه حسب نوع المحنة التي مرّوا بها، وحسب أعمارهم وقدراتهم وخلفياتهم. وربما من الجدير التنويه إليه قبل هذا استعراض هذه الفعاليات، أن الفئة المستهدفة من هذه الفعاليات متنوعة ومتباينة بصورة معقدة بعض الشيء، فهناك:

أ. فئة تتعرض للمشكلة الحقيقية (من قتل، واعتقال، وتهجير، وتدمير...).
ب. فئة مشاركة بالمشكلة (قريب، زوج، زوجة، أبناء....).
ج. فئة مشاهدة قريبة من المشكلة والحدث (الحي، والجيران، والمدرسة، والجامع...).
د. فئة مشاهدة بعيدة عن موقع الحدث والمشكلة.

"[إن] الاختلاف بين الفئات عميق جداً، ولا يمكن الجمع بينه [كما أن] الشكل الخارجي للتعامل من جميع الفئات هو أسهل جانب بالمعادلة، وبخاصة في وطن محاصر يعيش تحت الاحتلال، تبنّى ثقافة الرجولة والإصرار وعدم إظهار المشاعر الحقيقية، أي باختصار (اللاضعف)".[5]

ضمن هذه الوضعية المعقدة، علينا أن نكون واعين إلى حقيقة أن هذه الفعاليات قد تكون أنسب لفئة دون أخرى، ونتركها هنا لتقدير المعلم، فما يعتبر جوهرياً لفئةٍ ما، قد يكون برانياً رفاهياً لفئة أخرى تجرعت أشد الكؤوس مرارةً.

في هذه المقالة يتم عرض الفعاليات ضمن محورين رئيسيين؛ الأول في إطار مشروع، والثاني ضمن فعاليات متنوعة ومنفصلة.

أولاً – مقترح درامي: مشروع "أمل"[6]

أنشطة إحماء:

نشاط 1 .....

رتب العبارات التالية حسب أولوياتها لديك... (اختر منها ما تريد).

- ألعب مع أصدقائي في الحي.
- أعيش في وطن حر.
- أعيش بسلام.
- أجلس في حضن أمي.
- ألعب في حديقة منزلي.
- لا أسمع قصف الطائرات.
- أكون أنا وعائلتي بأمان.
- أتعلم أنا وزملائي في المدرسة.
- أرى مدينتي جميلة.
- أحصل على ما أريده من طعام وملابس وألعاب وأدوية.

نشاط 2 .....

أكتب جملة أو فقرة حول الكلمات التالية:

أمل – بيت – وطن – أخبار – غضب – ضحك – بكاء – حزن – فرح – تصميم – بناء– مستقبل – حرب – حرية – أرض.

نشاط 3 .....

أكمل الجمل التالية :

- أبكي عندما . . . . . .
- عندما عدت للمدرسة شعرت . . . . . .
- عندما أسمع الأخبار . . . . . .
- أغضب عندما . . . . . .
- أضحك عندما . . . . . .
- نحن الأطفال . . . . . .
- أشعر أنني . . . . . .
- أتمنى أن . . . . . .

يستمع المعلم جيداً لما يقوله الأطفال أو يكتبونه، ويحاول أن يظهر تقديره لمشاعرهم وخلجاتهم.

- يقوم المعلم بتمثيل دور فتاة[7] تسللت عبر أحد الأنفاق هرباً من هول ما رأت، التقطها حارس ليلي في إحدى المناطق النائية خارج القطاع، ولكن يبدو أنها فقدت قدرتها على الكلام فانحبست عباراتها في عينيها؛ كلام كثير، ورعب دون نظير . . . لاحظ الحارس معها حقيبة، فتحها فوجدها خاليةً إلا من صورة لرجل في الخمسين، أشلاء كتاب، قلم محروق، زجاجة عطر مكسورة، حجر من حطام، وردةٌ جوري مجففة، الجزء العلوي من دمية، دفتر مذكرات فقد أوراقه ماعدا بضعاً.

البحث عن معانٍ ودلالات :

يتم تقسيم الطلاب إلى مجموعات، كل مجموعة تختار غرضاً من مقتنيات الطفلة، وتفسر سبب اختيارها لهذه الأشياء ورمزيته عند الطفلة. يمكن عمل رسم للطفلة على الورق، ووضع كل من هذه المقتنيات في موقع يتعلق بالطفلة، مثلاً الدمية عند الرأس كذكريات للطفل، الحجر تحت الأقدام كحب الأرض، أو في القلب كحب الوطن، . . . .

مدينة الأحلام في الكرة السحرية

يكمل المعلم المشهد . . . الطفلة أمل فاقدة القدرة على الكلام، وعندها تشتت في الذاكرة وفقدان للأمل، لذلك نجلس «أمل» أمام كرة سحرية ترى مدينتها التي أتت منها في ثلاث صور . . . لنر بعيني أمل :

- صورة من الماضي . . .
- صورة من الحاضر . . .
- الصورة من المستقبل . . .

ماذا ترى هذه الطفلة في الصور الثلاث؟

- في صورة الماضي يرسم الطالب أو يكتب ما يعتقدون أن الطفلة رأته في الماضي، وما كانت تفعل وتشعر من خلاله بالسعادة.
- أما في صورة الحاضر، فيشيرون إلى ما تغير وإلى المخاوف الجديدة التي راودتها وما تبدو عليه الصورة الآن.
- وفي صورة المستقبل، يشير الطلاب إلى ما يعتقدون حول أمانيها بخصوص المستقبل، وكيف تريد أن تكون، وما تود استرجاعه.
- يطلب المعلم من الطلاب الذين يرغبون في عرض صورهم الثلاث أمام باقي الطلاب أن يقوموا بذلك.

حقوق الأطفال :

- يتناول الطلاب في مجموعات مقتنيات الطفلة مرّة أخرى وتأويلاتهم حول سبب اقتنائها، هذه المرّة يحاولون إبراز الحق الذي انتهك من هذه الطفلة على ضوء هذا المقتنى.
- يطور المشاركون وثيقة لحقوق هذه الطفلة وغيرها من الأطفال.
- يطّلع الأطفال على وثائق لحقوق الطفل حسب المواثيق العالمية، ويناقشون مدى تطبيقها في واقعهم، وما تم اختراقه منها.

فيما يلي اتفاقية حقوق الطفل – اليونيسيف[8]

إن اتفاقية حقوق الطفل، التي تستند إلى أنظمة قانونية وتقاليد ثقافية متنوعة، تُشكّل مجموعة من المعايير والالتزامات المتفق عليها عالمياً وغير الخاضعة للتفاوض. وهي مبنية على احترام كرامة الفرد وذاته دون أي نوع من أنواع التمييز، كالتمييز بسبب العنصر، أو اللون، أو الجنس، أو اللغة، أو الدين، أو الرأي، أو الأصل القومي أو الاجتماعي، أو الثروة، أو المولد، أو القدرات، لذلك **تنطبق جميع هذه المعايير على البشر في كل مكان. وتلزم هذه الحقوق الحكومات والأفراد على حد سواء** بعدم انتهاك الحريات المماثلة للآخرين. وهي وحدة واحدة غير قابلة للتجزئة؛ وترتبط ببعضها ارتباطاً وثيقاً، بحيث يستحيل إعطاء الأولوية لأحد الحقوق على حساب حقوق أخرى.

تتضمن الاتفاقية 54 مادة، وبروتوكولين اختياريين. وهي توضّح بطريقة لا لَبْسَ فيها حقوق الإنسان الأساسية التي يجب أن يتمتع بها الأطفال في أي مكان – ودون تمييز، وهذه الحقوق هي: حق الطفل في البقاء، والتطور والنمو إلى أقصى حد، والحماية من التأثيرات المضرة، وسوء المعاملة والاستغلال، والمشاركة الكاملة في الأسرة، وفي الحياة الثقافية والاجتماعية. وتتلخص مبادئ الاتفاقية الأساسية الأربعة في: عدم التمييز؛ تضافر الجهود من أجل المصلحة الفضلى للطفل؛ والحق في الحياة، والحق في البقاء، والحق في النماء؛ وحق احترام رأي الطفل. وكل حق من الحقوق التي تنص عليها الاتفاقية بوضوح، يتلازم بطبيعته مع الكرامة الإنسانية للطفل وتطويره وتنميته المنسجمة معها. وتحمي الاتفاقية حقوق الأطفال عن طريق وضع المعايير الخاصة بالرعاية الصحية والتعليم والخدمات الاجتماعية والمدنية والقانونية المتعلقة بالطفل.

- بعد الاطلاع على الوثيقة يكتب الطفل شعارات وتعبيرات يحتج فيها الأطفال على الاختراقات التي ارتكبت في حقهم، ويخرجون في مسيرة داخل أسوار المدرسة أو في محيطها احتجاجاً على ما يعانون

من ويلات الحرب واستلاب طفولتهم.

دعوى في محكمة الجزاء الدولية في لاهاي:

تقرر «أمل» تقديم دعوى في محكمة الجزاء الدولية في لاهاي لمقاضاة المسؤولين عن معاناتها وإدانتهم بجرائم الحرب.

- يقوم المعلم بإعطاء نبذه عن محكمة الجزاء الدولية في لاهاي، ومهامها، وبعض الأشخاص الذين حوكموا بجرائم حرب هناك.
- يلعب الطلاب دور المحامين، وتوزع عليهم المهمات ضمن فرق، كل فرقة تبحث في موضوع: الأسلحة المحرمة دولياً، العدوان على مدارس الأمم المتحدة، قتل المدنيين وتهديم بيوتهم، . . . (يفضل عمل ذلك من وحي مقتنيات الطفل والتأويلات التي خرج بها الطلاب).
- تقوم الفرق مجتمعةً بتحضير تقرير يحوي شهادات حية من خبراء طبيين ومن وكالة الأمم ومن روايات المواطنين وروايات لأشخاص في مواقع مختلفة، موثقة كتابةً أو سمعياً أو بالفيديو (إن أمكن)، وتصوير ما أمكن من مشاهد للدمار للبيوت والشوارع والمدارس.
- يرفق الطلاب كتاباتهم الشخصية كأطفال، وروايتهم للحدث كلٌ كيف حصل معه، وأثر ذلك وتداعياته عليه مادياً ونفسياً.

ملاحظة: إذا كان التقرير على مستوى جيد يمكن إعطاؤه لمنظمة من منظمات حقوق الإنسان الناشطة في المنطقة.

بطاقات ورسائل . .

تريد «أمل» أن تبعث ببطاقات شكر لمن ساعدها أثناء محنتها التي مرّت بها، وبطاقات مواساة لأبناء بلدها، نساعد الطفلة على تحضير بطاقاتها.

- يقوم الأطفال بصنع بطاقات تحمل أمنيات بالشفاء العاجل للجرحى، والمواساة لمن فقد أحباءه، أو بيته.
- يمكن أن يقوم الأطفال بعمل بطاقات شكر للأطباء الأجانب والعرب الذين قدموا من خارج غزة في أصعب الظروف وأخطرها لتقديم العون، وللصحافيين والمراسلين الذين عرضوا حياتهم ليضعوا غزة في قلب الحدث، ولأطقم الإنقاذ الذين كانوا عرضةً للقصف وللمشاهد المؤلمة طيلة الوقت، وللشعوب المتضامنة، ولحكومة فنزويلا.

ملاحظة:
من الجيد أن يحاول الأطفال في غزة أن يسلموها بأنفسهم لأشخاص وقع اختيارهم عليهم، ومن الممكن أن يقوموا بذلك في جولة خاصة للمستشفيات لتفقد الجرحى.

فعالية 8: حكايات من دفتر المذكرات . . .

«أمل» حملت معها دفتر مذكراتها، وللأسف سقطت منه أوراق كثيرة، وكل ما تبقى منها بعض الأوراق كتب فيها:

الأحد 28/ 1/ 2008:

«تتكون الجملة الاسمية من المبتدأ وخبره، أما الفعلية ففيها فعل وفاعلٌ ومفعول به». آخر ما أذكر أن تعلمته قبل أن تبدأ رحلتي للجحيم . . . ما كادت المعلمة تنتهي من درس القواعد حتى اهتزت بنا الأرض، وزأر ضجيج الطائرات في أذهاننا إيذاناً بمصيبة حقيقية، الكل يصرخ، خرجنا من الصف متراكضات، أصوات سيارات الإسعاف تملأ المكان، مركز الشرطة بجانبنا قُصف بالكامل، جثث من حولي ودماء، يا إلهي أغثني! أين أمي، أبي، إخوتي؟

الثلاثاء 1/ 1/ 2009:

كعادتنا في كل ليلة ننتظر الصباح حتى يصحو، لأقبل أهلي على أنهم ما زالوا على قيد الحياة، واتصل بأصدقائي للاطمئنان عليهم، وأحاول النوم في النهار، وأصحو في الليل، وأحياناً أبقي أياماً وليالي لا أرى فراشي خوفاً من قصف أو حرق البيت بالقنابل الفسفورية.

السبت 6/ 1/ 2009:

في إحدى الليالي كانت المفاجأة . . . سمعت الأصوات تعلو في حارتي، صوت الرصاص وصوت مدافع الدبابات بشكل كثيف وقريب جداً، ولم نستطع النظر من الشباك لنرى ماذا يحدث؟ بدأت الحقيقة تختلط بالخيال، لأسمع صوت الدبابات تحت منزلي بالضبط ماذا افعل؟ ماذا يحدث؟ أين اذهب؟ كلها أسئلة مجهولة لا أعرف إجابة عليها.

الاثنين 7/ 1/ 2009:

سألت والدي الذي أمضى 15 عاماً في سجون الاحتلال الإسرائيلي، ماذا نفعل؟ أنترك البيت كبقية السكان؟ فكانت إجابته رفض ترك المنزل، وأصر على البقاء فيه، حتى لو هدموه فوقه . . . بدأ السكان بمغادرة العمارة وكذلك العمارات التي حولنا، فوجدنا أنفسنا وحيدين في العمارة، فأقترح والدي أن نتركه ونرحل، وهنا كان المفصل!

الجمعة 11/ 1/ 2009:

أكملنا ما تبقى من يومنا عند أقربائنا وحاولنا النوم في الليل على أمل يوم جديد يأتي في الصباح. ومع بزوغ الصباح الجديد حاولنا الاتصال لنعرف ماذا حدث في منطقتنا في حارتنا، فعلمنا أن السكان عادوا إلى المنطقة، وسرعان ما عدنا للاطمئنان على البيت، على الجيران، على الأصحاب، وما أن دخلنا المنطقة إلا وكانت الصرعة.

الأربعاء 16/ 1/ 2009:

هدمت البيوت وماتت كل الذكريات القديمة فيه، ذكريات الميلاد، وذكريات اجتماع العائلة لتناول الغذاء، وذكريات اللعب في غرفة الألعاب، ولكن . . . .

- يكمل الطلبة مذكرات الطفلة في الأيام المكتوبة.
- يختار الطلاب تواريخ فقدت من المذكرة، ويكتبون فيها مذكرات هذه الطفلة.
- يقوم الطلاب بكتابة مذكرات طفل/ ة من مخيم جنين قرأت مذكرات أمل وتعاطفت معها لأقصى درجة.

يمكن بدء المذكرة على النحو التالي:

لا أدري أتلك مذكراتي التي كتبتها بضع أعوامٍ مضت، هل أنا في جنين.. في غزة؟

- مذكرات طفل/ طفلة من فلسطين أثناء العدوان على غزة، وكيف كان شعورها وهي ترى ما ارتكب بحق إخوانها في غزة من جرائم وانتهاكات.

أشقائي في غزة، قلبنا يتفطر، وأعيننا تدمع، نمد أيدينا ولكن لا ندري كيف ستصلكم، . . .

- رسالة إلى طفل إسرائيلي: إلى شلومو وراحيل، عندي لكم سؤالاً!

ملاحظة: يمكن أن يقوم الطلاب بكتابة ذكرياتهم عن الحرب، أو الاطلاع على مذكرات كتبها الطلاب أثناء أيام العدوان.

ثانياً: فعاليات أخرى:

غزة في صور:

المرحلة المناسبة: الابتدائية العليا والمرحلة المتوسطة والثانوية

- يكلف الطلاب بمهمة البحث عن صور لها علاقة بالحدث؛ سواء من الجرائد أم من صفحات الإنترنت أو من كاميراتهم الشخصية.[9] يحاول الطلاب اختيار الصور التي تعبر عن مشاعرهم أو خبراتهم التي مروا بها، أو تسجل مواقف متضادة.
- ينظم الطلاب معرضاً للصور ويعلقونها على الحائط أو على حبال، أو على شكل عرض شرائح على الكمبيوتر. ملاحظة يمكن الاستعانة بالصور التالية:

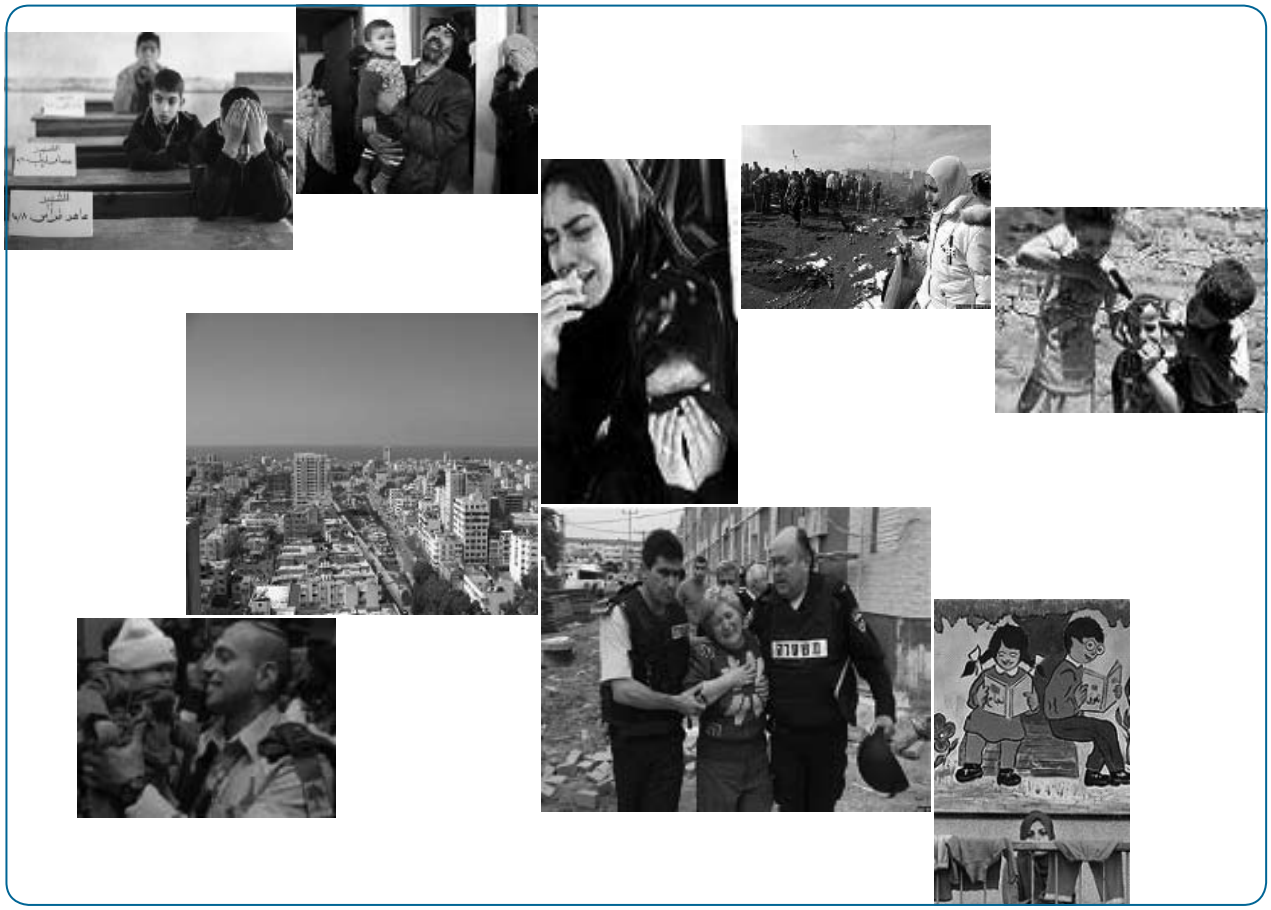

- يحلل الطلاب الصور مبرزين الوقائع الموثقة في كل صورة، والمشاعر المستوحاة من كل صورة.
- يكتب الطلاب مواضيع إنشائية تصلح أن تكون إحدى الصور جزءاً منها.
- يستحضر الطلاب ألحاناً وأغاني موسيقية تصلح أن تكون خلفية لهذه الصورة.

محطة مع الشعر

المرحلة المناسبة: المتوسطة والثانوية

وصف الفعالية:
يطلب من الطلاب البحث عن نصوص شعرية ترتبط بموضوع الحدث (العدوان على غزة)، من حب للوطن، والتمسك بالأرض، ومفهوم الإرهاب، وغيرها من المواضيع المتعلقة، ومن الممكن الاستعانة بمقاطع من النصوص الشعرية التالية:

النص الأول: لن أنساكم. . . .

لو كنت أعلم يا حجر ما كان يخفيه القدر
لنزعت قلبي جانباً وزرعت قلباً من حجر
نعم . . بعد أيام يحين موعد الفراق
تسقط الدموع . . تبتسم الذكريات
تحزن القلوب . . تفترق الدروب
يأتي المغيب ويكثر الضباب
تغيب رؤياكم لست أدري
كيف أنساكم
أحبائي
أودعكم وقلبي راحل معكم
أذكركم بماضي العهد
إن كانت دروب البعد تنسيكم
أحبائي تذكروني
أنا أحبكم

النص الثاني للشاعر نزار قباني من «ثلاثية أطفال الحجارة»

يا تلاميذ غزة علّمونا
بعض ما عندكم فنحن نسينا . .
علمونا بأن نكون رجالاً
فلدينا الرجال صاروا عجينا . .
علمونا كيف الحجارة تغدو
بين أيدي الأطفال ماسا ثمينا . .
كيف تغدو دراجة الطفل لغما
وشريط الحرير يغدو كمينا . .
كيف مصاصة الحليب
إذا ما اعتقلوها تحولت سكينا .
يا تلاميذ غزة لا تبالوا
بإذاعاتنا ولا تسمعونا . .
اضربوا . . اضربوا بكل قواكم
واحزموا أمركم ولا تسألونا

- يمر الطلاب على هذه المحطات الشعرية أو جزء منها، يتم نقاشها والاتفاق معها أو الاختلاف، ويتم إبراز الصور الشعرية فيها ومدى تعبيرها عن الواقع الذي يشهده الفلسطينيون والعرب.
- يطلب من الطلاب البحث عن قصائد أخرى مغناة، تستنهض ما بداخلهم من مشاعر الحزن والغضب والثورة والأمل وحب الوطن، وما إلى ذلك من مشاعر تختلجهم.
- يشجع المعلم طلبته على تأليف بعض الأبيات الشعرية أو المقتطفات النثرية التي تعبر عما يجول في خواطرهم وما يختلج في مشاعرهم.
- يختار الطلاب قصيدة لاقت استحسانهم، ويحاولون تحويلها إلى قصة مكتوبة أو ممثلة.

معاً نبني غزة . . . كيف نساعد؟؟

المرحلة المناسبة: المرحلة الابتدائية العليا فما فوق

وصف الفعالية:
يناقش المعلم مع طلبته مدى الضرر المّادي الذي حل في القطاع، ويناقش ما يلزم للبدء بالإعمار في الشوارع والمباني، والكيفية والبدائل لاستئناف العمل في الوزارات والمؤسسات الحكومية والخاصة. يوجه المعلم الطلاب إلى خبراء في هذا المجال أو يستضيف خبراء إلى المدرسة بهذا الخصوص. تستعرض المجموعة العقبات والمشاكل التي تواجه المنطقة في عملية الإعمار كالحصار وعدم إيصال الدعم المادي.
يقدم الطلاب طروحات لمواجهة هذا الوضع ومدى المساهمات التي يمكنهم كأطفال وكشباب المبادرة بها.

من روايات أطفال غزة

المرحلة المناسبة: جميع المراحل

يعرض المعلم أمام طلبته بعض الروايات التي تم أخذها من شاشات التلفاز، والتي من المرجح أنهم استمعوا إليها في بيوتهم وعاشوا مثلها أو سمعوا من أبناء بلدهم، فيما يلي بعض الروايات:

الرواية الأولى:

أمير الذي لجأ مع عائلته إلى مدرسة من مدارس الأونروا أثناء القصف ظهر على قناة الجزيرة وعبر عن رعبه. وقد ناشد العالم أن يلتفتوا إلى الوضع الذي آل إليه هو وأقرانه وأبناء بلده، وإلى الحصار الذي تفرضه إسرائيل عليهم، كما تحدث عن همومه كطفل وحرمانه من اللعب وبرامج الأطفال التي يرى بدلاً منها تشييع الجنازات. ونوّه إلى الفرق بين الطفولة التي يعيشها الأطفال في غزة والأطفال الآخرين في العالم.

الرواية الثانية:

الطفلة هناء بنت الثانية عشرة أيضاً ظهرت على شاشات التلفاز لتروي هي الأخرى روايتها أثناء الهجوم البري على غزة، وما تعرضت له هي وأسرتها من قصف ودمار وهدم لبيتها وبيت أقاربها والمخاطر التي تعرض لها والدها أثناء القصف، وتتمنى لو أنها تتمكن أن تعيش مثل أطفال العالم.

الرواية الثالثة:

هند[10] أيضاً روت ما حصل معها أثناء القصف، حين كانت هي وأفراد عائلتها العشرة نياماً في منزلهم الذي تعرض للقصف، وتهدم ما عدا غرفة كانوا فيها، ثم طردوا من منزلهم والتجأوا إلى بيت الجيران، وطردوا مرّة أخرى منه وسط بكائهم وذعرهم ولم يجدوا إلا الرمال فراشاً لهم في تلك الليلة، فناموا بردى ومذعورين، وعندما أصبحوا عادوا إلى منطقتهم ينادون الأرواح الحية لتعلن عن نجاتها، ولكن للأسف كان هناك الكثير من الشهداء والمصابين وقلة من الناجين.

هذه رواياتهم، هل لديك رواية تحب أن ترويها؟ هل تريد أن تسمع الناس صوتك؟ صف مشاعرك أثناء تلك الأحداث. ما الرسالة التي تود أن تقولها لكل من يسمعك؟

ملاحظة: تحفظ روايات الأطفال المكتوبة أو المسجلة صوتياً أو عبر الفيديو للتوثيق المستقبلي.

من هنا وهناك

- ينسق المعلمون فيما بينهم لتنظيم مهرجان حول أحداث غزة يحوي رسومات، وعروضاً مسرحية، وإلقاء أشعار ذات صله بالوضع الراهن، وعزفاً، وكتابات لطلاب، وفقرات ترفيهية للأطفال.
- تخطط المدرسة لحملة تبرع بالدم يشارك فيها الأطفال ضمن العمر المناسب، أو يشاركون في التخطيط لهذا النشاط.
- يسند إلى الطلاب مهمة القيام بالبحث عن شعوب أو مجموعات أخرى تعرضت للاضطهاد ووقعت تحت وطأة الحرب وعانت من ويلاته بدءاً من مخيم جنين وأطفال قانا وحرب لبنان الأخيرة، وانتفاضة الأقصى، والانتفاضة الأولى، ومآسي البوسنة، وما تعرّض إليه السود من اضطهاد على أيدي البيض، والجزائر التي قدمت مليون شهيد، والعراق وما شهدت من ويلات. وقد يكون من المفيد هنا عرض أفلام تتلاءم مع هذا السياق مثل فيلم عمر المختار وغيرها من الأفلام التي تتحدث عن مآسي العبيد وغيرها الكثير، التي في النهاية تحصل على مبتغاها، ولا تذهب تضحياتها هدراً وينصفها الدهر ولو بعد حين.

وبعـد

بعد الانتهاء من كتابة هذا المقترح، راودني شعور بالقلق في مدى ملاءمتها لحجم الضرر الذي حدث، كوني من خارج غزة لم أتعرض لأزيز الطائرات وارتجاج الجدران ولم أشعر أن شبح الموت يداهمني في كل ثانية، ولم أشعر بأني أحتضن أطفالي وأنا عاجزة عن حمايتهم، لم أتجرع كأس الحرمان والفقد. لقد شاهدنا هؤلاء الأطفال يبكون ويصرخون ويستنجدون ويروون، وذهلنا، ولكن أعتقد أن الذهول الحقيقي هو المثول في قلب الحدث وتقمص خبرتهم. أمرٌ لا يتمنى أحدٌ مجرد تخيله . . . دعواتي ونبضات قلبي لكم يا أهلنا في غزة.

لمزيد من الإرشادات حول التعامل مع الأطفال في الظروف الصعبة، يمكن الرجوع إلى المصادر التالية:

- http://k6educators.about.com/library/weekly/aa091201a.htm
- http://fatherhood.about.com/od/parentingadvice/a/talk_tragedy.htm
- http://k6educators.about.com/library/weekly/aa091201a.htm
- http://www.abc.net.au/tv/btn/teachers/downloads/warandconflict.pdf
- المركز الفلسطيني للإرشاد (2001). المرشد البسيط للمعلم في التعامل مع الطالب في الظروف الصعبة. الطبعة الأولى، القدس- فلسطين.
- مركز مصادر الطفولة المبكرة والمركز الفلسطيني للإرشاد (2004). المرشد البسيط للتعامل مع الطالب في الظروف الصعبة. الطبعة الثانية، القدس- فلسطين.

ليانا جابر – مركز القطان

الهوامش

[1] From: http://www.nasponline.org/resources/crisis_safety/children_war_general.aspx

[2] From: http://www.cyh.com/HealthTopics/HealthTopicDetails.aspx?p=114&np=141&id=1909

[3] المرجع: المرشد البسيط للتعامل مع الطالب في الظروف الصعبة (2004).

[4] From: http://adoption.about.com/od/parenting/a/griefandchild.htm

[5] مقتبس من مهى برزق، باحثة في مركز القطان، غزة.

[6] يمكن تعديل النشاطات تبعاً للمرحلة.

[7] تتفق المجموعة على إعطاء اسم للفتاة (وقع الاختيار على اسم أمل هنا)، كما يمكن استبدال الشخصية بطفل وليس طفلة حسب تفضيل المجموعة.

[8] http://www.unicef.org/arabic/crc/34726_34730.html

[9] من الأفضل تفادي صور الدماء والقتل إذ يكفي ما عاناه هؤلاء الأطفال. مصدر هذه الصور من الإنترنت، وهي بضع من مئات بل ألوف، وقد تكون ليست الأفضل للطباعة والتكبير، يمكن الحصول عليها من المصدر مباشرةً بنوعية أفضل وبتنوع أكثر، كما يمكن استعراض مقاطع مصوّرة للفعالية نفسها.

[10] بعض الأسماء افتراضية، يمكن الرجوع إلى المصدر: http://www.aljazeera.net/nr/exeres/55ad0c4c-2ff0-4291-8756-f5885d701486.htm